4846
51

في التربية والتعليم ابو زهير [illegible]

الثقافة والتهذيب

رسالة تبحث في علم التهذيب

ومقام التربية والتعليم من حياة الافراد والجماعات ، ولزوم ثقافة المعلمين
وتتناول الموضوع من وجهتيه العملية التجريبية والعلمية النظرية .

١ – التحقيق العملي : تربية الاحداث – التربية والتعليم – علاقة المهذب بالتلميذ
قواعد التهذيب في مدارسنا – طبائع الاستبداد – حق المعلمين – اخلاق المعلمين –
حوادث فجور – الخائف والمخوف – [illegible] – احكام باستعمال سائقة
العلم والاخلاق ٣: ثقافة المعلمين

٢ – التحليل العلمي : تعريف التهذيب – تمييز العلوم عن الفنون – الابداع
العلمي والتحقيق الصناعي – الادراك والعواطف – الفن ومعنى الجمال – علاقة فن
التهذيب بالعلم – صفات المهذب – هل يولد المرء مطبوعاً على التهذيب
الشعور الفطري : لابد من علم الثقافة

لزوم تأسيس دار للمعلمين

كانون الثاني ١٩٣٠ المطبعة الوطنية – بيروت

في التربية والتعليم

ابو زهير الاندلسي

الثقافة والتهذيب

رسالة تبحث في اهمية التهذيب

ومقام التربية والتعليم من حياة الافراد والجماعات ، ولزوم ثقافة المعلمين
وتتناول الموضوع من وجهتيه العملية التجريبية والعلمية النظرية .

١ً – التحقيق العملي : تربية الاحداث – التربية والتعليم – علاقة المهذب بالتلميذ
قواعد التهذيب في مدارسنا – طبائع الاستعداد – حق المعلمين – اخلاق المعلمين –
حوادث فجور – الخائف والمخوف – نفسية الاحداث – احكام باتصال ثقافة
العلم والاخلاق : ثقافة المعلمين .

٢ً – التحليل العلمي : تعريف التهذيب .. تمييز العلوم عن الفنون – الابداع
العلمي والتحقيق الصناعي – الادراك والتدارك – الفن ومعنى الجمال – علاقة فن
التهذيب بالعلم – صفات المهذب – هل يولد المرء مطبوعاً على التهذيب
الشعور الفطري : لابد من علم الثقافة

لزوم تأسيس دار للمعلمين

كانون الثاني ١٩٣٠

المطبعة الوطنية — بيروت

الاهداء

الي اخواني المهذبين

الذين يسعون بأيمان ووجدان الى اعادة مجد بلادهم
بتحرير ابنائنا من قيود الجهل وفساد الاخلاق
بواسطة التربية والتعليم

تمهيد

ان اريد الا الاصلاح ما استطعت ،
وما توفيقي الا بالله ، عليه توكلت
واليه انيب   قرآن كريم

اهمية التهذيب

اني اشهد ان سلطان التربية على النفوس عظيم ، واومن بتأثيره النافذ فيها ايماني بوجود نعم الحرية . ولم اجرأ على بحث هذا الموضوع الخطر ، موضوع الثقافة والتهذيب ، الا لأني امل ان اجد آذاناً صاغية وقلوباً واعية ، من افراد احرار تأنف كرامتهم ان ينتسبوا لامة لا يزال معظم ابنائها يرسف في قيود ثقيلة من الجهل وفساد الاخلاق . وما تلك القيود الا تراث شائن ، اورثتهم اياه اجيال متطاولة من الذل والاستعباد .

ولم تستطع حتى الان تلك المعاهد الخاصة ، المثبوتة في طول البلاد وعرضها ، استئصال هذا الداء العضال ، بالرغم مما اسدت الى البلاد من خدمات ، وما اورثتها من نكبات ... ولن تستطيع ذلك .

ولا انكر ان لها بعض الفضل في تخفيف وطأته ، واني مقر بحسناتها الجمة على فئة من ابناء البلاد غير قليلة . فتثقفت بعلومها ، وتهذبت بآدابها . واني معترف بأياديها البيضاء علي ، فاذا كنت استطيع ان افكر

او اعمل ، ولو قليلا ؛ فيرجع لها الفضل بذلك . لكن ! لا يجوز لنا ان ننتظر منها الدواء الشافي لهذا البلاء العظيم ، واي شر اعظم من وباء الجهل المتفشي في طبقات هذه الامة التي لا يزال ثمانون في المئة من ابنائها اميين (١) ... ولا يجوز لنا ذلك ، لانها معاهد خاصة ، لها في مساعيها مآرب خاصة .

ومن الخطاء ان نذهب مذهب القائلين بكفايتها ، ومن المجازفة ان يعقد عليها بعض المسؤولين عن سياسة الامة امانيهم في ثقافة الجمهور وتهذيبه . فالامة التي لا يكون لها معاهد عامة يستطيع ابناؤها ورودها ، هي امة اضاعت الغاية من حياتها ، باهمالها المبادئ الصحيحة التي تقودها الى تحقيق تلك الغاية

فالى المسئولين عن هذا البلاء الاكبر اوجه النداء ، واسترعي اهتمامهم الى ما سأورده لهم ، عساهم ان يلهموا سلوك الطريق السوي التي تتفق مع حالة ابناء الامة ، وتلائم روح العصر الحاضر ، فيقربوا تلك الجماعة المنكودة الحظ لمعاني السعادة الحقة التي تحررها من

---

(١) عددالمقيمين في لبنان ٦٣٣٦٠٣ نسمات والذين يقرأون ويكتبون هم ١٦٦٢٠٣ فيكون عدد الاميين ٤٦٧٤٠٠ نسمة اي هم اكثر من ثمانين في المئة من عدد السكان .

عبودة مهينة بكرامتها ، تلك السعادة التي كان الشرق سباقاً الى تذوق طعمها اللذيذ ، فاضاعها باهماله وتكاسله .

❀❀❀

واصبح من فضول الكلام القول بأن التربية والتعليم هما مقياس يعرف به رقي الامم وانحطاطها . ولا مراء في ان اعمال الافراد هي قوام حياة الجماعات . فان تغذت الاخلاق بروح التربية الصحيحة ، واستنارت العقول بقبس المعارف الصالحة ، شرفت تلك الاعمال وسمت نفوس القائمين بها . ففازوا بالقوة والسعادة ، وحملوا الى المدنية قسطهم المشرف. فسعدوا وسعد البشر بمساعيهم البارة . وان اهملوا التربية والتعليم ، ونت عزائمهم ومرضت اخلاقهم ؛ وتسرب الفساد الى عاداتهم ، ووقعوا في هوة سحيقة من الفوضى ، وهنالك الطامة الكبرى

وانما الامم الاخلاق ... وانما الاخلاق بالتهذيب .

ولا لبس على ان اول واجبات الوالدين نحو ابنائهما هو القيام بفريضة الثقافة والتهذيب . وقد سبق لنا ان اثبتنا في غير هـذا المقام حقوق الاحداث بمعاشهم وتهذيبهم . فالواجب الاخلاقي الانساني يقضي على كل ولي ، بالسهر على سلامة ابنائه ، سلامة اجسامهم

وعقولهم . ومن البديهي ان كل رجل عديم التهذيب ، يزيد في عداد الفقراء والمجرمين ولا علاج للفقر والجريمة الا بالتربية والتعليم (١)

وقد ادرك زعماء الاحزاب ، في جميع الحكومات المنظمة سر هذه القوة . لذلك نراهم يوجهون اهتمامهم؛ شطر اصلاح مناهج التربية ، وتنظيم طرق التعليم ، لان قوتهم كامنة في صفوف الاحداث الذين يؤلفون رجال المستقبل وهم يعتقدون ان سر بقائهم هو في قبضة

---

(١) جاء في خطاب الاستاذ يوسف السودا نائب بيروت في جلسة المجلس النيابي (١٧ كانون اول سنة ١٩٢٩) مايلي :

... وهنالك نسبة غريبة بين عدد الاميين وكثرة الجرائم . خذوا قضاء صيدا وفيه من المهاجرين والاجانب ٦٠،٢٢٧ نسمة منهم ٥١،٠١٩ من الاميين ، فلايبقى الا ٩،٢٠٨ يقرأون . فالاحكام الجزائية التي تصل الى الاسبوع تبلغ في المنطقة ١٩١ حكما سنويا . والتي تصل الى الثلاثة اشهر تبلغ ١٢٣ حكما . فالاميون في قضاء صور خمسة على ستة اجزاء ، وكذلك عدد الجرائم فيه .

ثم قابلوا قضاء صيدا بقضاء المتن . ففي المتن من المهاجرين والاجانب ٨٠،٣٨٢ نسمة منهم اكثر من النصف يقرأون ويكتبون . المتن يزيد عشرين الف نسمة بالنسبة الى صيدا فكان يجب ان تزيد نسبة الاجرام فيه . مع اننا لانجد في المتن مقابل ١٩١ حكما جزائيا بالاسبوع الا ٨٣ حكما . ومقابل ١٢٣ حكما جزائيا بثلاثة اشهر الا ٩٢ حكما . واذا واصلنا هذا الاحصاء نجد ان هنالك نسبة حسابية غريبة بين الجهل وكثرة الاحكام الجزائية ، وبين التعليم وقلة الاجرام ، في سائر المناطق اللبنانية .

الاطفال الذين يرقبون . فحينما يستولون على زمام الاحكام ، تسترعي برامج التعليم، ومناهج التهذيب نشاطهم ، فيستخدمونها بحسب ماتوحيه اليهم عقائدهم الاجتماعية، للاكثار من اشياعهم ، وتعزيز قواهم، وتنفيذ المهمة المثلى التي انتدبوا انفسهم لها لاسعاد بني الانسان .

❀❀❀

ولم يظهر العلماء اهتماماً في زمن من الازمنة لمعالجة هذا الموضوع من جميع نواحيه ، مثل مااظهروا في زمننا الحاضر . فاصبحت قضية التهذيب شاغل الجميع ، وتضاربت فيها الاراء ، واحتدم العراك في ساحاتها ، ولا غرابة . فالامم التي تطلب حياة صحيحة ، لاترد غير مناهلها العذبة ولا تستنير في طريقها الى تلك الحياة الا بمنارها الوهاج . واليها يرجعون سبب فوز الامم او فشلها في الازمنة الغابرة ، والى دعائمها يسندون الاحلام الجميلة بالحياة المقبلة .

ولم ينفرد علماء زمننا بتقدير اهمية التهذيب حق قدرها وهؤلاء هم الفلاسفة والشعراء والمؤرخون والسياسيون في الازمنة السالفة ، قداعاروا قضية التربية النظرية العلمية اهتماماً عظيما . فقرروا العمل بقواعد لتهذيب العقلي . معلقين عليه اعظم الامال لتحسين شرائط حياة جماعاتهم . واذا شئنا ان نسطر تاريخ علم التربية وجغرافيته ، لاحتجنا

الى كتابة تاريخ البشر كافة ، وتخطيط جغرافية المعمور . لان كل وضعة اجتماعية ، وجميع الاوضاع السياسية ، في طول البلاد وعرضها تستوحي خيالها السامي من قواعد تهذيبية خاصة . ولا نرى مفكراً و فيلسوفاً اهتم بشؤون الحياة اهتماماً صادقاً نزيهاً ؛ الا واقترح طريقة تهذيبية كان يتراءى له فيها سعادة بني جنسه بوجه خاص ، وسعادة البشر بوجه عام . ومالنا الا ان نفتح اول كتاب في تاريخ المناهج التهذيبية يقع تحت ايدينا حتى نتأكد صحة هذا التأكيد .

❀ ❀ ❀

وها انا ذا واضع بين يدي القارىء هذه الرسالة الاولى وموضوعها « الثقافة والتهذيب » فسيجد فيها قسمين ، يتكلم الاول على التحقيق العملي او الوجهة التجريبية للثقافة والتهذيب ، وهي كما شهدتها في مدارسنا الاهلة والرسمية : وكما يستطيع مشاهدتها كل من له ادنى اهتمام بالتربية والتعليم . ويتكلم القسم الثاني على التعليل العامي . وهو الوجهة النظرية العقلية لهذا البحث ؛ فيرى فيه حاجتنا الى ثقافة المعلمين . ثم الفت نظره الى النتيجة التي اصل واياه اليها وهي لزوم تأسيس دار للمعلمين ، لتوحيد الثقافه ومعالجة الشر المستطير الذى تتألم منه المعارف العامه في بلادنا .

القسم الاول

الوجهة العملية التجريبية

التحقيق العملي

اني خبرت مهنة التربية والتعليم . فاذا ما حدثت القاريء عنها يكون ما ارويه اليه نتيجة تجاريب ومشاهدات

وقد اتيح لي ان ارقب حالات مختلفة لتلاميذ مختلفي الاعمار فكان لي منهم اصدقاء، ولم يتجاوزوا بعد الخامسة من العمر ؛ وكانوا يرقبون ساعة مجيء لزيارتهم ، فيتزاحمون حولي وايديهم الصغيرة ممدودة الي لمصافحتي ، فرحين ، مزغردين كطيور يتسابقون لاستقبال اباهم الذي يحمل اليهم القوت ... فاتناول ايديهم الواحدة بعد الاخرى ، واحس بهزتها هزة قلوبهم الطيبة . واقول الطيبة بلا تردد بالرغم مما كان ينتاب نفوس هؤلاء الاحداث من سوء المعاملة في منازلهم

تربية الاحداث

وحاولت ان اجعل من « حديقتهم » جنة ، وقد يخطأ من يتوهم

ان الاحداث لا يقدرون حسن المعاملة حق قدرها . فالروح الانسانية منذ تمييزها بين الخير والشر ،تميز بين الحسن والقبيح . ولا شك في ان حسن المعاملة تبعث في نفوسهم الثقة، والثقة اول المحبة . وتحي في قلوبهم الروح المدرسية، التي لا يمكن التلاميذ، كباراً كانوا او صغاراً، ان يجنوا ثمرات يانعة من ترددهم الى المدرسة، اذا لم تخالج نفوسهم تلك الروح . وقد تجلت لي في غيرتهم على الحضور الى حديقتهم في ايام الثلج والقر وفي ايام القيظ والحر. ولما لم تمكنني اعمالي من المكث طويلا بينهم، كنت ازورهم بين حين وحين، واحضر دروسهم واشاطرهم العابهم .

واني احمل من ساعات اجتماعي بهم اجمل ذكرى. واني مدين لها بمعرفة الروح الانسانية بعض المعرفة، وهي التي عرفتني بروح الطفل، وما فيها من اثرة واستبداد، ونزق وطيش. وما فيها من سذاجة ونقاوة، وخلوص ووداعة . وهنا تجلت لي صعوبة قيادة الاحداث، وهي اصعب بكثير من قيادة الرجال . لكن تيسر لي الوصول الى اعماق تلك القلوب بواسطة اللين والانصاف، والعدل الذي لا يعرف المحاباة، وفزت بثقتها. ومتى ما وثقت روح الطفل، سهلت قيادتها

بنظرة او اشارة ، لان الثقة معناها المحبة . والمحبة عند الاطفال هي الاستسلام .

ولا انسى اول مرة تعرفت بها عليهم . فكانوا اشبه بالحيوانات البربريه منهم بالاطفال المستأمنين . لان القسوة والارهاب كانا قد عبثا بالثقة ؛ ونفرا القلوب . فكانوا ينظرون الى « المدير » كرجل مخوف لا يأتي لزيارتهم الا و « عصا موسى » تهتز في يمينه . فشاهدوا ان هذا المدير لا يحمل العصا . اذاً ليس هو مديراً . ثم حمل لهم البشرى بموت العصا . « ماتت وقبرناها ونبتت الالعاب على قبرها ؛ وها هي الالعاب ! . » وكان لا يتمتع بها الا من يستحقها بصدقه وطاعته ، واجتهاده في الدرس واللعب . فاجتهدوا في سبيل استحقاقها . ودجنتهم الثقة . وبدلتهم المحبة باطفال غيرهم . فما كانوا يشكون قط في محبتي التي ثبتت لهم في مختلف الظروف . كما انه لم يبادر ذهني شك في انني احببتهم جميعاً كاولادي .

التربية والتعليم

واصبح لي اصدقاء غيرهم ، تتراوح اعمارهم بين العاشرة والعشرين وكنت القي على الكبار منهم دروساً في التاريخ . فاذا اقتصرت

علاقاتي باولئك الاطفال على تطبيق بعض قواعد التربية فان علاقتي بهؤلاء الكبار كانت تشتمل على التربية والتعليم ايضاً . فاحترمت تلك الناحية من نفوسهم التي كان سلفي يهتك حرمتها بالشتم واللطم ،واخذوا يشعرون بانهم غير الحيوانات العجم وباستطاعتهم ان يتفهموا النصح الصادر عن نفس تريد بهم خيراً

واستطعت ان اقود معظمهم من تلك الناحية الحساسة من نفوسهم التي تقدر الكرامة حق قدرها . اقول معظمهم ، لان البعض منهم كانت العصا قد جعلت منهم عبيداً ؛ فحطمت كرامتهم واصبحوا نسخة ثانية عن مهذبيهم . فلا تستطيع طرق اللين والحلم ان ترى في نفوسهم أثراً عاجلا ويلزم لذلك متسع من الوقت . وثبت للفئة الكبيرة ان من لم يكرم نفسه لا يكرم فاحبوا مدرستهم ، واحبوا دروسهم ، واحترموا من يستحق الاحترام من اساتذتهم

علاقة المهذب بالتلميذ

ولطرق العنف والارهاب والقسوة انصار بين معظم الاساتذة الذين اسند اليهم امر تهذيب ابناء الشرق . واذا كنا لا نرى العصا ماثلة في يمين بعضهم مثول « عصا موسى » فهي تتجلى في سلوكه واخلاقه

وما فتيء بعلاقته مع التلاميذ سيداً مخوفاً ، فيعاملهم معاملة الجناة الذين يجب الاقتصاص منهم • ويحول نعيم هؤلاء الابرياء الى جحيم لا يطاق. واميل الى الاعتقاد بان سبب ما دعوه فجوراً في ثورة بعض التلاميذ على اساتذتهم يرى سره في تلك المعاملة الوحشيه • وهي ايضاً السبب في ظهور اعمال التعدي التي نسمع بها بين حين وآخر ،والتي يقدم عليها، هؤلاء الذين يدفعونهم الى الجناية قسراً على ارواح اساتذتهم • ويبعد عن الظن ان احد هؤلاء العبيد هو الذي يقوم بمثل هذه الاعمال . لان العبد لا تتأثر نفسه من سوء المعاملة ، فقد اعتاد عليها ،ولا يثور في وجه الظلم والاضطهاد الا الذين لا يزال في نفوسهم بقية من عزة النفس والاباء • وعلى كل حال فقد حال لنا ان نفكر في استبدال تلك الطرق الشوهاء ، وكسر العصا في شكليها الظاهر والخفي ، لانها اصبحت اداة قطع ، لا اداة وصل ، بين المعلم وتلميذه . فقتلت الثقة ، واذا ما قتلت هنا الثقة ، ضاعت الغاية من التهذيب .

وعلاقة المعلم بتلميذه اشبه شيء بعلاقة الزارع بتربته . فاذا ماتوسم فيها صلاحاً وخصباً ؛ نشط اليها ، وقلبه طافح املا وفي يمينه بذار لا شك عنده في سلامته ، وخلوه من الغش والدغل فيبثه في كل ناحية من حقله

ويترك للايام مجالا للقيام بعملها المنتج . وهل المهذب الا زارع ، بذاره الافكار والعواطف ، والعلوم والاخلاق ؛ وهل التلميذ الا التربة التي ينشط اليها ذاك الزارع الممتاز فيتعهدها بعنايته ويغار عليها غيرته على شرفه ...

قواعد التهذيب في مدارسنا

اما « الطريقة المثلى » التي نهج عليها معظم الاساتذة في تربية ابنائنا وتعليمهم ، فهي الارهاب . وشاهدت ظاهراته في ادارتي للمدرسة « الاهلية » وفي انتسابي للمدرسة « الرسمية » وسمعت عنه الشيء الكثير في المدارس « الخصوصية » حتى الراقية منها . وذعرت لما شهدت في المدرسة الاهلية « الصفع » وسيلة يركن اليها الاساتيذ ، لاسترعاء انتباه التلاميذ . « والشتم » طريقة لردعهم عما يجب اجتنابه . و « العصا » اداة اولى واخيرة للثقافة والتهذيب : فان اهمل التلاميذ حفظ دروسهم كان جزاؤهم العصا ؛ وان خالفوا الاوامر ، او اقترفوا ذنباً كبيراً كان او صغيراً كان الدواء بالعصا . وهي تلعب في اقفيتهم طيلة حياتهم الدرسية . وكثيراً ما كان يجلدهم المعلمون قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم!

ولما اعترضت على « تلك الطريقة المثلى » التي اعتصم بها المعلمون

التربية والتعليم ، ابرزوا لي قانون المدرسة ... فقرات فيه « مادةالعصا» فكان الضرب اذاً قاعدة التهذيب في ذاك المعهد منذ تأسيسه،ولاجناح على هؤلاء المعلمين ، اذا جعلوا من الصفع والشتم . ذيولا لذاك « القانون السامي »

وشاهدت في المدرسة الرسمية الطرق التي شهدتها في شقيقتها الاهلية . ولو لم تبلغ في قسوتها الدرجة التي وصلت اليها تلك . لانهالم تكن مسجلة بقانون . وهي صرف «اجتهاد» من الاساتذة . فلا تزال العصا مسلولة في يمين المعلم . فيضرب بها اثناء الدرس ، ويسوق بها التلاميذ الى النزهة والرياضة ؛ الى العمل والراحة، الى اللعب والصلاة. ويخرجها المدير من خزانته كلما جاءه تلميذ يحمل في يده مذكرةتشعر بأن عصا المعلم وحدهالم تكن كافية. فيستأنف المدير حكم الضرب . ويتعرف التلميذ الى عصا الاستئناف بعد ان تذوق طعم عصا البداية

فثبت لي مما شاهدته هنا وهناك ، ان حكمة العصا لمن عصى لم تكن هراء في نظر كثير من المهذبين ، بل كادت ان تكون آية سماوية يراعون تطبيقها بكل اهتمام وغيرة ... وهي لا تزال تنهش اقفية ابنائنا ، وتلتهم نواحي كبيرةمن اخلاقهم .

طبائع الاستبداد

تلك اذاً سنة يهذب معظم المعلمين عليها الناشئين ؛ بلا خجل . فلا نعجب بعد ذلك ان تخرج مدارسنا قطعان العبيد ، فيملاون الشرق وينقادون لكل ناعق ويمرغون جباههم على نعال كل سيد ويسيرون في حياتهم الخاصة والعامة خانعين اذلاء ، في النيابة والادارة والقضاء؛ وفي المهن الحرة والصناعة والتجارة والزراعة . فاصبحت مدارسنا بفضل عقلية هؤلاء الاسياد حظائر يروضون فيها الناس على الاستعباد . بينما نرى المدارس في بلاد الخلق معاقل تسير بجيوش الاحداث الذين يؤلفون رجال المستقبل الى الحرية والاستقلال . فهلا ترى ايها القاريء في تلك الحظائر جرثومة الشر المستطير الذي جعل الشرق وابناءه في هذا الدرك الاسفل من الانحطاط . بعد ان كان مناراً تهتدي به الامم في ظلمات حياتها المدلهمة !

وتراانا نشعر بظماء شديد الى الحرية والاستقلال ؛ وكيف لا تتلهب نفوسنا لتلك الحرة ونحن محرومون من نعمها ، ونحن نرسف تحت قيود ذليلة ، لم تكن عصا المعلم اولها، ولن نكون آخرها ، فاذا كان الضعف سبباً الاستسلام لها ، فقد اصبح الجبن سبباً في البقاء فيها . وقد تولدت تلك

القسوة الوحشية عند معظم التلاميذ لا سيما الاحداث منهم عاطفة الجبن، وهي اشد بلاء من عاطفة الخوف ، لان الجبن هو خوف مستمر ، لا يعرف له من نهاية ، وخنوع يظهر تأثيره في القول والعمل • ويسهل علينا رؤية طوالع هذا الجبن.وقد شهدته بنفسي سواء اكان في المدرسة الاهلية ام في المدرسة الرسمية ، فلم استطع ان اوجه سؤالا لتلميذ الا ورأيته يتخذ لنفسه من يديه ترساً يرفعهما الى وجهه ليدرأ صفعة اعتاد ان يراها تنهال عليه من معلمه . كما انه يسهل علينا ملاحظة نتائج هذا الجبن ، ويرى ذلك في عادة الوشاية التي يتمرن عليها الاطفال ؛ فيشكون للمعلم اقل بادرة تظهر من سلوك رفاقهم ، تزلفاً لذلك السيد الصغير • فتصبح فيهم ملكة تقوي في نفوسهم عادة التجسس للحاكم ، ذلك السيد الكبير . والجبن يقتل النخوة والمروءة عند الفرد ، والتجسس يقتل الشهامة والشجاعة ، في الجماعة . وما ذلك الا احد اوبئة الاستبداد الغاشم الذي يتفشى في طباع الافراد والجماعات التي ينشأون عليه . وليست تلك الا ظاهرة واحدة من ظاهرات القسوة الحمقاء التي انشأت تلاميذ جبناء وهي اهونها ! . . وابناؤنا بحاجة الى شيء من الجرأة والشجاعة فقد كفاهم جبناً وخنوعاً

حمق المعلمين

وحول جهل المعلمين مدارسنا ، اهلية كانت او رسمية ، الى سجون. ونظروا الى الاطفال الذين اسند اليهم امر تهذيبهم نظر الجناة الذين يجب الانتقام منهم(١) مع ان عقلية الرجل المتمدن اخذت تنظر حتى الى المجرمين بعين العطف والشفقة ؛ لانها تعتبرهم مرضى ؛ وعلى الجمعية الانسانية معالجتهم واصلاحهم . ولا يزال اساتذتنا ينظرون الى هؤلاء

(١) جاء في مقدمة العلامة ابن خلدون : «فصل في ان الشدة على المتعلمين مضرة بهم» وذلك ان ارهاف الحد في التعليم مضر بالمتعلم سيما في اصاغر الولد لانه من سوء الملكة ومن كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين او المماليك او الخدم سطا به القهر وضيق على النفس في انبساطها وذهب بنشاطها ودعا الى الكسل وحمل على الكذب والخبث وهو التظاهر بغير ما في ضميره خوفا من انبساط الايدي بالقهر عليه وعلمه المكر والخديعة لذلك وصارت له هذه عادة وخلقا وفسدت معاني الانسانية التي له من حيث الاجتماع والتمرن وهي الحمية والمدافعة عن نفسه ومنزله وصار عيالا على غيره في ذلك بل وكسلت النفس عن اكتساب الفضائل والخلق الجميل فانقبضت عن غايتها ومدى انسانيتها فارتكس وعاد في اسفل السافلين . وهكذا وقع لكل امة حصلت في قبضة القهر ونال منها العسف واعتبره في كل من يملك امره عليه ولا تكون الملكة الكافلة له رفيقة به تجد ذلك فيهم استقراء . وانظره في اليهود وما حصل بذلك فيهم من خلق السوء حتى انهم يوصفون في كل افق وعصر بالحرج ومعناه في الاصطلاح المشهور التخابث والكيد وسببه ما قلناه فينبغي للمعلم في متعلمه والوالد في ولده ان لا يستبدوا عليهم في التأديب ...

الاطفال الابرياء بعين لا أثر للعطف والحنو فيهـا . فيتوهمون ان التهذيب معناه سوق هؤلاء الاشرار الى الصـلاح، بالضرب واللطم والاهانة والشتم ، ولا اعجب بعد ذلك ان يوزع بعض حكماء الشرق الحمق ، الى مئـة قسم ، خص المعلمـين منه بتسعة وتسعين جزءاً وترك الجزء الاخر لبقية الناس . بينما وزع حكماء الامم الذين يحترمون انفسهم وابناءهم ، الفضيلة ، الى مئة قسم ، خصوا المعلمين بتسعة وتسعين جزءاً منها ، وتركوا القسم الاخر لبقية الناس

وكل من خبر مدارس الغرب يقتنع من صواب قول حكمائه، وكل من زار مدارس الشرق يتجلى له صدق حكمائه ايضاً لما يراه فيها من برهان ناصع لا يقبل الجدل، ولا تزال طقطقة عصا مدير احد المدارس ترن في اذني وانا اكتب اليك هذه السطور، وقد هجم على احد صفوف الاحداث كالموت الاحمر وفي يمينه سلاحه المشؤوم ... فظننت ان للمدير قد اصابته جنة : وكنت مخطيء في وهمي ، تلك حالة طبيعية لمدير يذهب لتأديب تلاميذه ... دخل المدير كالعاصفة على الصف وشرع ينادي التلاميذ واحداً واحداً وينهال على ايديهم الناعمة بالضرب المبرح. ولماذا؟ لان استاذ العلوم الدينية قد شكا اليه كسلهم ، فلم يحفظوا درس الدين. فحولت شكوى المعلم المدير الى جلاد ، يمر هؤلاء المجرمون امام سيفه

المسلول ويقطّع ايديهم . واقول يقطع ايديهم لاني شاهدتها بام العين مشلولة، في صباح اليوم الثاني ٠ وقد تعذر على بعضهم كتابة درسه ، بسبب تنفخ اصابعه ٠٠٠

وليس من عاقل لا يشك بعد هذا في فساد طريقة العنف فهي لا تليق بالحيوان فضلا عن الانسان ، فلا ادري كيف تنظر تلك العقلية الممسوخة الى هؤلاء الابرياء كقطعان من حمير ... فاصبح اصحابها وعصيهم في عينهم ،رعاة حمير . وليس من عاقل لا يشعر بحاجتنا الى الثقافة والتهذيب ، لاننا بهما فقط نستطيع ان نتحرر من سلاسل الذل والاستعباد، ذل مصدره الجهل ؛ واستعباد سببه فساد الاخلاق ٠ لكننا لن نصل الى غايتنا المنشودة بتلك الوسائل الشوهاء، ولن يكون محرورنا هؤلاء العبيد البلهاء ، الذين لا يرون قاعدة صحيحة للتهذيب خارج القسوة الحمقاء ؛فلا بد لنا اذاً من جعل الثقة اساس الاحترام في التربية،واذا ما استند الاحترام الى الثقة المتبادلة يكون صحيحاً مبنياً على المحبة.بينا اذا استند الاحترام الى الخوف والرهبة ،كان كاذباً، ونتج عنه الجبن

اخلاق المعلمين

وبتحتم علينا حسن انتقاء المعلمين للوصول الى غايتنا من الثقافة

والتهذيب ،فيجب ان يكونوا على جانب عظيم من سلامة الأخلاق ، والثقافة الصحيحة ، ولن تنمو تلك الثقة المطلوبة بين تلميذ ومعلمه اذا كان هذا مشكوكا في سلامة اخلاقه . وقد عرفت مديراً لاحدى المدارس الكبيرة كان قد اعتقل لامر سياسي . فلما شدد عليه القضاة ، منفذين فيه عين المنهاج الذي كان يسير عليه لتربية تلاميذه ، اي لما شهر رجال التحقيق في وجهه العصا التي طالما شهرها في وجوه الاطفال الابرياء ؛ اخذ يتهم الناس بكل ما عزي اليه ؛ وعدد اسماء عيون بلده الذين كان معظمهم محسن اليه ، ونضحت تلك النفس النتنة بما فيها . فذعر القاضي من نتيجة اعترافاته . وقال له اثناء المحاكمة : اتئد يارجل وع ما تقول ، فانك بثرثرتك تقذف بخيرة الناس الى اعماق السجون، انت معلم . فيجب عليك ان تكون اهدأ حالا ، وان تمنعك ثقافتك من هذا الشطط ...

ولم يمض على هذه الحادثة زمن قليل حتى اخلي سبيله ، فخرج من السجن بعد ان الحق الاهانة بخيرة رجال بلده . . ومع هذا فقد اعادته هيئة المدرسة الادارية الى التدريس «شفقة عليه » ولم تشفق على تلك الارواح العزيزة التي تنيط ادارتها به

فعاد الى تهذيب ابناء هؤلاء الذين لطخ كراماتهم بسقوط اخلاقه خوفاً من العصا ، عاد الى المعهد نفسه لتهذيب النشء على اسس الفضيلة

والشرف ؛ وتلقين ابناء كرام الناس مبادىء العلوم الصحيحة . واعداد القسم العالي للشهادة العليا وهو صفر اليدين من كل وثيقة تشهد له بتحصيل العلوم، حتى الابتدائية منها. كما ثبت بحجنه امام القضاء انه خلو من كل نبل واباء

حوادث فجور

عاد المدير الى المعهد بعد خروجه من السجن ، وعاد الى عصاه... معتصما بها كأداة للتهذيب . فوقع له حوادث كثيرة مؤسفة ، من شأنها قتل هيبة المعلم في قلوب تلاميذه . وفي هذا اهون الشر ... ومن هذه الحوادث ، انه بينما كان يضرب احد هؤلاء الذين اسند اليه امر تهذيبهم ابت كرامة التلميذ ان يعامل معاملة الحيوانات العجم . فثار في وجه الضارب ، وانتزع منه سلاحه عنوة ، وكسر العصا . وكان ما لا بد من وقوعه : فتماسك المعلم والتلميذ، وكانت حرب عوان على مرأى من ابناء المعهد . ولولا تدخل المعلمين والخدم، لقضى التلميذ على استاذه ...

وقيل انها حادثة فجور ، وقيل انها حادثة اباء وانفة ، كان المسوق اليها الضغط الاحمق ، وما اكثر تلك الحوادث في المعاهد التي لا تزال فيها العصا سائدة ، والتي لا يزال المعلمون يلجأون فيها الى الاهانة والشتم والصفع واللطم . وهلا يتساءل القاريء عن الفروق التي تميز هذا القوم

الذي يدعي تهذيب الخلق عن الرعاع الذين يتضاربون في الازقة . حقاً انه جدير بنا ان ننصف ابناءنا ، ونحسن انتقاء الاساتذة ؛ ونوصد ابواب المعاهد من وجوه السوقة الذين يمكنهم ان يتعاطوا مهنة غير مهنة التعليم ..

الخائف والمخوف

وكادت تضيع الغاية من التعليم بين ذاك الخائف وهذا المخوف . اما الخائف فهو ذاك الحمل الوديع الذي تتفتح مواهب عقله على انوار العلوم النافعة ، وتتهذب اخلاقه بالقدوة الصالحة . قدوة استقت ينبوعها من سلوك المعلمين . والمخوف ، هو هذا الذئب الخاطف الذي يرتدي ثوب الراعي الامين ، الساهر على راحة حملانه وسلامتها ، وقد تحولت عصاه التي يهش بها على خرافه، لى مآرب اخرى .. الى سيف شبيه بسيف ديموقليس المصلت فوق رؤوس هؤلاء العزل الذين اردعهم اولياؤهم الى المدرسة لتكون لهم بيتاً ثانياً ، بل بيتاً اول . وقد استبد بهم هؤلاء الطغاة الغشم فاخذوا يؤلمونهم في اجسامهم بدعوى التقويم ، ويؤلمونهم في اراحهم بدعوى التهذيب . وبئس ما يفعلون ، وقد بعثت في الامي هذا الخائف الصغير حاجة التفكير في امر معالجة هذا الداء الوبيل ، وفي

ابعاد الذئاب المفترسة عن حظيرة الخراف الودعاء

نفسية الاحداث

وزادني رغبة في التوغل في اعماق هذه الناحية من موضوع التهذيب. تلك الناحية الفلسفية التي تميط اللثام عن معنى التهذيب وروح التهذيب وغاية التهذيب . وشرعية التهذيب ، وامكان التهذيب ، زادني رغبة في استقصاء كنه هذه القضايا وتعليلها التعليل العلمي، ما شاهدته بام العين من شذوذ بعض المعلمين ، وهذيانهم وجهلهم وغطرستهم ، والآثام التي يقترفونها بتعطيل تلك الارواح النقية ٠ فكم من معلم يحمل تلاميذه ما لا طاقة لهم به، لجهله علم النفس ، وسير مواهب الطفل ونموها ؛ وكم من معلم لا يراعي النسبة بين قوي تلاميذه العقلية وقواهم الجسمية لجهله قابلية نمو الاعضاء ٠ وكم منهم من تتحول الفوائد المنتظرة من تعليمه الى افساد خلق تلاميذه لعدم مراعاة النسبة بين اعمارهم والدروس التي يلقيها عليهم ؟

احكام باشغال شاقة

هوذا معلم اسند اليه قراءة دروس الطبيعيات ٠ فأخطأ تلاميذه فيهم

ناموس كان قد شرحه لهم شرحاً اشك في كفايته ، لان جميع تلاميذ الصف لم يفقهوا منه شيئاً . فبدلا من ان يعيد الشرح احتدم الاستاذ غيظاً ،وامرهم بكتابة الناموس خمسمئةمرة بالحبر،والفمرةبالقلم الرصاص؛ وحبس المساكين ساعتين ونصف ساعة لتنفيذ العقاب ! فماذا كانت النتيجة ؟ لقد حفظ التلاميذ بلاشك القاعدة ، لكنهم لم يتقدموا في في فهمها خطوة واحدة الى الامام ، لقد لاكوا كالحيوانات المجترة امر لا يغنيهم من جوع ، اما النتيجة الاخلاقية لهذا العمل الشاق، فاترك للقاريء ان يحكم فيها .

وذاك معلم آخر ، يدرس اللغة الفرنسوية ، ويفهم من تدريس اللغة حفظ الحان الالفاظ دون المعاني ... وهو من الذين تضرموا تضرماً لمنع الضرب ، فلا يستطيع ان يلقي دروسه بدون ان يزود تلاميذه ببضع لطمات وصفعات ، تلك « سلطة » لا بد منها لتسهيل هضم الدروس . فاحتج لهذا التدبير الذي « لا يتفق بشيء مع اصول التدريس » . ولما لم يجده احتجاجه نفعاً ، اخذ ينتقم من تلاميذه بالشتم والاهانة ،والتوقيف والاخراج من الصف . ويكتبهم صحيفة الدرس لمجرد هفوة صغيرة تصدر منهم فيحكم عليهم بنسخها خمسين مرة . . . فادى الامر باحد التلاميذ، وكان حول السابعة عشر من العمر، ان يطلب العودة الى اهله . لانه لا

يرى من الانصاف في شيء تلك « الاشغال الشاقة » التي يحكم بها استاذه عليه. وهذان استاذان يتوهم كل منهما انه يقوم بمهمة التهذيب والتعليم وانه يغار على مستقبل تلاميذه ، وهذان نموذجان عن اساتذة منتشرين في جميع مدارسنا ، فما لنا الا ان نلقي بنظرة واحدة الى احداهما ، ايا كانت، حتى نرى لهما اثراً بيناً

العلم والاخلاق

وهناك استاذ آخر ، لو اتيح له ان يعيش قبل مئة عام، لادعى انه ظل الله على الارض ، وهو وحده مجموع اساتيذ . فهو استاذ بالموسيقى وتوقيع الالحان ، واستاذ بتأليف الروايات وتحرير المقالات والقاء المحاضرات واستاذ بالسياسة ، بل زعيم في السياسة واستاذ باللغة ، فيرفع الفاعل وينصب المفعول بلا ادنى خطأ لكنه « يكسر » نفوس ابناء وطنه الذين اسندا اليه شأن ثقافتهم وتهذيبهم . وخطر بباله يوماً ان يكون استاذاً بالتاريخ . ولما كانت مهمته في المعهد منحصرة في قراءة دروس اللغة فحسب ، الف كتاب الاحداث وحاول ان يجعله في عناوينه طبق برنامج الحكومه . فاهدى ادارة المعهد نسخة منه . فرثيت لحال « الاستاذ بالتاريخ » لانه الف كتاباً ليكون عوناً لاطفال تتراوح اعمارهم بين الثامنة والعاشرة ، وقصر

عليهم ما هم بغنى عنه ، واهمل ما هم بحاجة اليه . فلم يهمل الاستاذ بالتاريخ مثلا التبسط في قصة مولد السيد المسيح ، ولم يستحي ان يكتب بالقلم العريض « الحقيقة المنزلة » . ولا ادري ما هي الفائدة من قصة الحمل بلا دنس بتفاصيلها الرائعة الى احداث لم يبلغوا العاشرة من العمر ، وهو يذكرني بهؤلاء الذين يشرحون للاحداث اصول الفقه ، ويسهبون في الكلام على الطهارة والنجاسة والحيض والاستبراء ، والحدث الاصغر والحدث الاكبر . . . وهو يذكرني ما قرأته ذات يوم في بعض شوارع بيروت على منازل اتخذوا منها مدارس للاطفال فدعوها مثلا : مدرسة جمعية الحبل بلا دنس . . . وهلا تنتظر ايها القاريء ان تسئل تلك الفتاة الصغيرة : ما هو الحبل يا ابونا ، وما هو الدنس يا ابونا ؟

تلك فواجع اخلاقية تنتج عن تعلم الحقائق قبل اوانها . ولا تفقه تلك العقول المهذبة ، معنى للنسبة التي يجب مراعاتها ، بين سن الاحداث والمعلومات التي يمكنهم الاطلاع عليها .

ثقافة المعلمين

وما اكثر العجائب التي يمكن الكل من له ادنى رغبة في التطلع الى اعمال التهذيب ان يراها . وقد رويت للقاريء النذر القليل مما شاهدت

وهو مع غرابته اهون ما شاهدت . فينبغي علينا اذا اردنا خيراً بابناء هذا الوطن ، ان لا نسند مهمة التعليم الى معامين جهلاء ، والجهل شر القيود ؛ ولن يستطيع العبيد البلهاء ، ان يهيئوا للامة رجالاً احراراً . ومعظم المعلمين في الشرق يرزحون تحت اعباء ثقيلة من السلاسل، يتعذر علي عدها واحصاؤها في هذه العجالة . اقول معظمهم مستثنياً تلك الفئة القليلة العاملة التي لا يزال وجودها يخفف بعض هذا البلاء ، بدون ان تتمكن من مكافحته . وهذه الفئة مع قلتها ، هي فخر التعليم في بلادنا . فلن تجدنا الدور المشيدة ، والكتب الموضوعة والمترجمة وحدها نفعاً . فيجب ايضاً ان نختار الكفيء من الاساتيذ لتهذيب وتثقيف التلاميذ . وجدير بالذي يسند اليه تثقيف عقول الاحداث ان يكون على شيء من الثقافة ، وجدير بالذي يسلم اليه تقويم الاخلاق ان لا يكون مريضاً في اخلاقه.

اذاً ما هو التهذيب وما هي علاقة الثقافة به ؛ وهل يولد الانسان مطبوعاً على التهذيب ، وهل يمكن الاستغناء عن علم الثقافة هذا ما سأحول بحثه في القسم الثاني من هذا الموضوع. فنطالع معاً على معنى التهذيب وعلاقته النظرية العقلية بعلم الثقافة ، وهي التي تهدينا الى الاعتناء بتوحيد ثقافة المعلمين اي بتأسيس دار المعلمين .

❀❀❀

القسم الثاني

الوجهة النظرية العلمية

التعليل العلمي

قلت في القسم الاول من هـذا البحث اني خبرت مهنة التعليم واجراء على القول في مطلع هذا الفصل اني حاولت ان اتثبت من القواعد النظرية العلمية التي تركز فن التهذيب على اسس علم الثقافة ؛ وهذا هو التعليل العلمي الذي وعدت القاريء به، وقد سردت له بعض الشواهد التي دات على تقصير معظم الاساتذة في القيام بمهمة التربية والتعليم . فقادنا البحث الى ازوم الاعتناء بثقافة المعامين . ولا لبس على ان جهلهم مطبق . فاستأثروا بارواح الاطفال لذين اسند اليهم امر ثقافتهم وتهذيبهم ، وجعلوا من المدارس اهلية كانت او رسمية ، حظائر يروضون فيها الناشئين على العبودية فتخرج على ايديهم قطعان من العبيد ... ولا شك في ان هذه الوسائل التي يستخدمونها ، لا تحرر ابناءنا من نير

الجهل فجهل المعلمين هو الداء، والقواعد التهذيبية التي يطبقونها هي مصدر الوباء. فالدواء يكون ،بتأهيل المعلمين لتلك المهنة المقدسة، التي هي سياج الوطن، تحفظه من الاضمحلال. فيستبدلون حينئذ المناهج الشوهاء التي يسيرون عليها، بمناهج اقرب الى سبل العدل والصواب. فنحرر ابناءنا من عبودة مهينة بكرامتهم؛ ونوحد صفوفهم بتوحيد ثقافتهم وينعتقون من سلاسل الجهل، واي قيود أثقل من هذه السلاسل ..

تعريف التهذيب (١)

وها انا ذا اتقدم الى القاريء بالتعليل العلمي الذي يميط اللثام عن علاقة فن التهذيب بعلم الثقافة من وجهتها النظرية العقلية. فما هو التهذيب؟

قال احد علماء الانكليز « ان التهذيب اداة سعادة للفرد، فيسعد ويسعد اقرانه » وهو على رأي غلاة المهذبين الالمان : « نشؤ متناسب للمواهب الانسانية » ولا يسعني هنا ان ابتسط في تعريف التهذيب بحسب المناهج والعقائد المختلفة خشية ان ابتعد عن الغاية التي اتوخاها

(١) مارتان وباريزو: المباديء الفلسفية للثقافة ـ وقد رجعنا الى هذا الكتاب لتنظيم مواد هذا الفصل.

من هذا البحث الموجز. فاقول مع معظم علماء الفرنسويين، ان التهذيب هو طريقة منظمة، ذات مناهج معينة، يقصد منها تثقيف مواهب الاحداث، واعطائهم شخصية خاصة

ورددت كثيراً لفظ الثقافة ولفظ التهذيب، واتخذت منهما عنوانا لهذه الرسالة، ولا بد من تحديد علاقة كل منهما بالاخر؛ فاعني بالاول العلم وبالثاني الفن، ولفلسفة التربية والتعليم نظريات علمية وتطبيقات فنية، ومن الضروري التمييز بين العلم والفن

تمييز العلوم عن الفنون

ومما لاشك فيه ان العلم يتميز عن الفن، ويستند هذا التمييز الى تلك القاعدة الهامة وهي: اننا نعلم فقط بواسطة العلوم، بينما نعلم ونعمل بواسطة الفنون، فالفن يقرن بالعمل والتحقيق، والعلم لا يتعدى النظريات (١)

مثال ذلك: يحكم المعدن في طبيعة الاحجار الكريمة بحسب ما يراه في تبلورها البراق؛ وثقلها، وقابلية ذوبانها، والوانها، وخصائصها التي تظهر للعين المجردة. ويقطع النحات تلك الاحجار الكريمة بحسب

(١) امبير: فلسفة العلوم.

وجوه 'لتياورقيا؛فيعطيها الشكل الدي يسر اعين الناظرين اليها ويعرضها بضاعة للبيع بطريقة تظهر فيها افضلية بعضها على البعض الاخر وهذان عملان يختلف فيهما الاول عن الثاني ؛ وحيث ما يستطيع المعدن النجاح يمكن للنحات الاخفاق

الابداع العلمي والتحقيق الصناعي

وسمعنا كثيرين يقولون ان عبقرية الابداع العلمي وقدرة التحقيق الصناعي قلما يجتمعان في صدر رجل واحد . وكثيراً ما يفلح المرء في مختبره ، فيصل الى نتائج حسنة بينما يكون نصيبه الافلاس اذا طلب العمل في المصنع . فالعلم اذاً هو البحث النظري عن القواعد والنواميس مجرداً عن النفع . والفن هو تطبيق تلك القواعد والنواميس فينتج لنا من هذا انه يمكن للعلم ان يولد وينشأ وهو بغنى عن مساعدة الفن ، بينما الفن بحاجة الى العلم ليزهو ويزدهر .

والعلوم الطبيعية والكيماوية والفلكية والنفسية والحطابية هي علوم نظرية صرفة من شأنها تنوير العقل الانساني فتميط له النقاب عن اسرار هذا الكون وتطلعه على حقيقة النواميس الطبيعية لكن قلما يكتفي الانسان بهذا العرفان النظري الصرف فيجنح الى محاولة سبر غور الامور

عملياً ويتدبرها بنفسه حين يستطيع الى ذلك سبيلا

الادراك والتدارك

فيدرك الانسان بالعلم ويتدارك بالعلم والفن ، ويجمع بينهما ، ومن هذا الزواج البديع فوائد كبيرة . فتصبح حينئذ العلوم الطبيعية والكيماوية صناعة مثمرة ، وعلم التشريح طباً مفيداً ، وعلم الاصوات موسيقى مطربة ، وعلم الخطابة بلاغة ساحرة ، وعلم الثقافة فن تهذيب وتعليم . ويتضمن هذا الفن الاخير مثل بقية الفنون شرطاً اساسياً لا غنى له عنه ، وهو معرفة العلم الذي يرتكز عليه معرفة حقة ، فهو مشتق منه ، بل هو مدين له بالوجود

فتكشف لنا الثقافة عن اسرار النواميس والقواعد الخاصة بها ، وينير التهذيب بسراجه الوهاج سبل التطبيق ومناهج العمل على شريطة ان يبقى الابداع وحرية الاستنباط للفن . فلا استئثار في هذا الزواج الذي اشرنا اليه . والا تصبح الحياة لا تطاق . ونخشى ان يؤدي بنا الامر الى الطلاق . فالموسيقي الفنان . يثقف نفسه بعلم الالحان لكن لا يتقيد به تقيد العبد بسيده ، بل يرجع اليه بعد اتقانه ، مع الاحتفاظ بنوع من « الاستقلال » .

الفن ومعنى الجمال

وهنالك نقطة طالما اهمل ذكرها وهي ان الفن بحاجة الى استكشاف معنى الجمال في الاشياء التي يلتقطها لا ان يحلل او يحل اجزاءها بالتأمل وتحكيم العقل . وبهذا يتميز ايضاً العلم عن الفن (١) . اضرب لك مثلا طرفة جميلة من قصائد شاعر القطرين فلا يستطيع ان يجزم احد بجمال طرفة غيرها ينظمها شاعر آخر ويسلك فيها عين المناهج التي سلكها شاعرنا . فقد تحقق القصيدة الاولى بعض مظاهر الجمال التي تستشف عن مظاهر اخرى يدركها الضمير . وقد تكون بدلت بشروط الجمال نفسه . فالفن لا يخضع لنواميس العلم خضوعاً جامداً . فهو كناية عن خلق وابداع والمعرفة المجردة لا تخلق شيئاً . ولا يتكل ابدال غريزة الشاعر بمواهب العقل وحسب ، لكن هل يفيد ذلك ان الشاعر بغنى عن العقل وان الغريزة تكفيه ؟ — حقاً لا ، والشرط الاول الذي يجب ان يرتكز عليه كل ما يبتدعه العقل البشري ، هو صفة المعقول . ثم تليها صفة الوضوح . ولا يستثنى العلم او الفن من هذه القاعدة ، ولاسيما ان

(١) غيو : قضايا الفن الحديث صحيفة ١٤٠ — ونضرب مثالا احدى طرف فولتير فذكرنا مكانها احدى طرف شاعر القطرين

العلم يسم الفن تلك السمة ، سمة الوضوح التي لا يمكنه التخلي عنها

علاقة فن التهذيب بالعلم

وما ينطبق على الموسيقى والشعر والتصوير وبقية الفنون يصح انطباقه على فن التهذيب . ولا يحسن هذا الفن ان يكون غير عقلي . كما انه لا يحسن ان يقف في وجه النواميس التي يخضع لها العقل البشري . وهل من المعقول ان يجهل المهذب قواعد علم الاعضاء التي اذا جهلها لا بد له من ان يخرق قواعد القوى الحيوية سواء اكان ذلك بتكليفه تلاميذه اعمالا تفوق قواهم فتخور عندها ، ام بعدم معرفة توزيع هذه الاعمال ؟ وهل يعتذر المهذب اذا كان يجهل علم النفس ؛ فقد شاهدنا في الفصل الاول من هذا البحث امثلة مؤلمة لم تكن الا نتائج طبيعية لهذا الجهل ، ومن منا يعذر ذاك الجوهري اذا جهل خصائص الذهب مثل اللدونة وسهولة الذوبان؟ كذلك لا نجد عذراً لذاك المهذب الذي يجهل كيف تعامل روح الطفل ، وكيف تنشأ افكاره وكيف تتعهد عواطف الضمير . وليس بالمعقول ان الذي لا يدرك كيف تربى الحافظة وتقوى الادراك يستطيع ان يتعهدهما في رأس الطفل قبل ان نكونا قد رسختا في رأسه . وعلى هذه الحالة يمكننا ان نثبت من قواعد

المعارف التي يجب على المهذب ان يحيط بهـا علماً ، ويتقنهـا . مثل علم الاخلاق والعلوم الاجتماعية والنفسية والفلسفية كافة

صفات المهذب

فاصبحت الثقافة مدينة لهذه العلوم جميعها ، ومع ذلك فان هذه المعارف وحدها ليست بكافية لايجاد مهذب صالح . فيجب عليه ان يتصف بصفات اخرى منها الذوق السليم ، والميل الفطري لفن التهذيب والحذاقة واليقظة اللذان تنيران سبيله ، فيعلم كيف يتكلم وكيف يعمل بحضور تلاميذه ، وتلك الموهبة التي تسمح للمهذب ان يتوغل في اعماق روح التلميذ ، وتلك الكفاءة التي يجب ان تظهر في ظروف معلومة والتي تختلف باختلاف المواقف والاشخاص (١)

تلك صفات لا بد من وجودها في شخص المهذب ، وهنـا لا يمكن الجزم ، اذا توفق مهذب بسلوكه منهجاً معيناً ووصل الى نتائج حسنة ، بان غيره من المهذبين لا بد لهم ان يفلحوا بسلوكهم عين المناهج وما لنا الا ان نذكر مثل شاعر القطرين الذي اشرنا اليه ، فان يخضع اذاً فن التهذيب الخضوع كله للعلم المجرد ، ان يكون ذلك ، او توصل

---

(١) وليم جايمس : محادثات تهذيبية [illegible]

هذا العلم الى تعيين قواعده بالضبط . ولو اصبح علم التربية على وثوق من مباديه مثل ماهي العلوم الرياضية على وثوق من مبادئها ... لانه لا يزال المجال واسعاً لحذاقة المهذب وسعيه الشخصي وذوقه السليم . ويمكن لتلك المواهب الاخيرة ان تكون لكل انسان ، فاذا اجتمعت لفنان حاذق لبق ، انشأ لنا طرفة جميلة ؛ واذا توفرت لرجل غبي بليد ، اخرج لنا اعجوبة كريهة

لاشيء ينوب عند المهذب عن العقل الراشد الذي يصدر الاحكام الراجحه في مختلف الظروف ، ولا شيء يقوم لديه مقام تلك البصيرة الوقادة التي تدرك عواقب الامور البعيدة ، بل لا شيء يعوض له عن ذاك الذوق السليم الذي يسل من بين مختلف الصعاب كما تسل الشعرة من العجين .

هل يولد المرء مطبوعا على التهذيب

تلك سجايا قال بعض علماء النفس بامكان اكتسابها ونفى امكان ذلك البعض الاخر ، حتى ذهب فريق منهم الى الاعتقاد بان المرء يولد مطبوعاً على التهذيب كما يولد الشاعر مطبوعاً على الشاعرية ؛ وان جهود المهذب تذهب مع الريح اذا لم ترفقها ميونه الفطرية التي

لها القسط الاعلى في مهمة التهذيب ٠

وهي نظرية فاسدة ؛ بل هي خطره ، اذا اصرت بالاستغناء عن علم الثقافة ٠ ولا نكران ان لبعض الناس قدرة على اشراك الغير بعواطفهم وافكارهم وارادتهم ، لكن يتعذر على هؤلاء ان يقوموا بمهمة التهذيب حق قيام لاول وهلة ٠و كثيراً ما يكبون في خطواتهم الاولى فتكون كبوتهم مصدراً لفتور همتهم ؛ فيرى القنوط سبيلا الى نفوسهم، بعدان يكونوا قد اغتروا بظاهر مواهبهم الفطرية ، ولا يحسنون مهمة التهذيب الا بعد ان يكونوا قداختبروها وتثقفوابالعلوم التي تتطلبها فتصبح حينئذ مواهبهم عوناً لهم ينفعون بها ٠

شعور الام الفطري

وعلى هذا فقد ذهب البعض الى القول بان شعور الام الفطري كاف لتهذيب روح ابنها ، وتثقيف عقله ، وان لا حاجة لها الا الى الاصغاء الى ما يوحيه اليها قلبها الرؤوم من الالهام السامي حتى تفوز بمهمتها وفي هذا التأكيد كثير من المبالغة ، وتلك الاهمية الكبيرة المنسوبة لعواطف الام مبنية على ملاحظة سطحية . واذا استطاع هذا الالهام السامي ان يسددخطوات بعض الامهات ٠ فلا يجوز

اطلاقه وتعميه على كل ام (١) واذا اجلنا الطرف في ما نشاهده حولنا من سلوك معظم الامهات في الشرق، وقد اشتهرت الامهات عندنا بالجهل المطبق، وكثير من الامهات في البلاد الاخرى نحو اطفالهن، تيقنا ان هذا الاحساس لم يخالج ضمائر الامهات جميعاً . فلم تسعد الام بالالهام في جميع المواقف لا سيما تلك الام الفتية التي القت الاقدار بين يديها خلق هذا الطفل الصغير الذي يشب ويترعرع ، فهي لا تفقه من تلك الحوادث التي ترقبها شيئاً . لجهلها نفسية الاحداث ؛ فتتخبط خبط عشواء في سبيل تطلب بصيرة وقادة وعقلا نيراً .

فماذا تكون النتيجة ؟ — نصل حتما الى تلك النتائج المؤلمة التي نرى لها آثاراً محزنة حولنا في طباع الاشخاص . ولا لبس على ان تدخل مثل هذه الام في شؤون الصغير يكون شره عظيما عليه. نظراً لجهلها سير مواهب العقل ونموها . فلا يقود خطواتها اقل نظرية ثابتة وهي عاجزة عن ان تستنير بنور الحوادث او تفقه معنى للناموس الذي يتبعه عقل الطفل في نشوئه . فلا تصغي الا الى غريزتها العمياء فتوصلها تلك الغريزة الى اسوأ النتائج . وقد يلمس القارىء الاهمية العظيمة التي يجب على كل جماعة تريد خيراً بابنائها ان تصرفها في سبيل ثقافة

---

(١) هربرت سبنسر : تهذيب العقل والخلق والجسم

لابد من علم الثقافة

فاذاً لا يكفي الالهام في موضوع التهذيب ان ينوب عن التجاريب والعلم . فالتهذيب فن ؛ والفنون تتقن بالممارسة ، ومن الضروري القيام بالتجاريب للوصول الى الاتقان المنشود . واذا اجتمعت التجارب والعلم فلا ريب ان من كانت عنده الميول الفطرية لفن التهذيب يمكنه تقوية تلك الميول ، حتى اذا ما قام بعمل تهذيبي جاء باحسن النتائج

ولا نخشى ان نقدم العلم على التجارب، فاذا لم تنر العلوم التجاريب لم يقم لهذه ادنى وزن ، والمهذب الذي يقف على كنه الثقافة يكون له اطلاع على اسرار مهنته . فلا يضطر الى تضحية نفوس عزيزة في سبيل تجاريبه ، ونرى اشد كبار المهذبين غلواً في حرية التهذيب يقفون عند حد لا يتعدونه ويقولون بلزوم تزويد المعلم بالعلوم والنصائح اللازمة ومن هؤلاء ررسو وسبنسر فلا يذهبان الى ترك المهذب وشأنه يتحمل عبء الاخطار التي تحيق بخطواته الاولى

ومن الخطأ الفادح ان نتصور ان اخفاق المعلم في طريقة تعليمه ينبهه اليه ما يراه من سقوط هيبته في نفوس تلاميذه ، فيبدل خطته

الاولى بخطة غيرها . لانه من العبث ان تترك لجهل المعلم مجالا للتجاريب الخاسرة ، فتنال تلك الصدمات القاسية من نفوس الاحداث وتؤثر في خلقهم تأثيراً لا تمحوه الايام . واي فائدة من تلك الالام الضائعة ؟ فلا يحق لنا ان نتخذ من نفوس الاحداث آلة لتجاريب لا طائل تحتها . واذا شاء مصور ان يعطل بضع زجاجات معوداً نفسه على اخذ صور متقنة ، فلا لوم عليه ولا تثريب ، ولا لوم على ذاك الشاعر الذي يتلف الاوراق والدفاتر في سبيل تمرين نفسه على نظم القصائد . لان الضرر الذي يلحق بهذا وذاك ليس بالضرر الجسيم . لكن لا يجوز ان يؤذن قطعاً بتعطيل ارواح فتية في سبيل تجربة يقوم بها المعلم الجاهل فيضحي ارواحاً عزيزة بلا جدوى، ومن اللازم اللازب ان يتلقى المهذب دروساً علمية ، وان يتقن قبل كل شيء علم الثقافة

هذه هي علاقة فن التهذيب بعلم الثقافة ، ولا غنى لهذا الفن عن قواعد العلم التي يشتق منها والتي هو مدين لها بالوجود .

التربية والتعليم

قلنا في نهاية القسم الاول من هذا البحث انه جدير بالذي يسلم اليه تقويم الاخلاق ان لا يكون مريضاً في اخلاقه وجدير بالذي

يسند اليه تثقيف العقول ان يكون على شيء من الثقافة • ولا يسمح لنا النطاق الذي رسمناه لنفسنا في هذه العجالة ان نتبسط في درس مناهج التربية وبرامج التعليم في تفاصيلها ؛ وسنسعى الى درسها في رسالة خاصة ونكتفي الان بهذه الالمامة الوجيزة لتنبيه الافكار الى الداء العضال الذي يهدد الامة في كيانها عسى الذين يهمهم شأن التعليم ان يتقدموا لمعالجته بالطرق النظرية والعملية فينقذوا الشرق من الهوة السحيقة التي يسير اليها ويحرروا ابناءه من ربق الجهل وفساد الاخلاق

وكاد المسؤولون الذين اخذوا على عاتقهم انقاذ الامة يقدمون على الغاء المعارف في الدولة ليأسهم من اصلاح حالتها ؛ ثم احجموا لاقتناعهم بان الانقاذ لا يكون بالالغاء والملاشاة بل بالاصلاح والمداواة . ولا شك في ان برنامج التعليم في المعارف العامة لا يتناسب مع حاجة البلاد ، كما ان الرقابة التي تتناول تعليم ابنائنا في المدارس الخصوصية لا أثر لوجودها . فكأن تلك المدارس تعلم ابناء امة غريبة عنا • فلا يهمنا شأنها • فيجب ان يكون للمعارف خطة معينة تسلكها في مدارسها ، مع مراقبة المبادىء العامة التي تتطلبها وحدة التربية والتعليم ، في المدارس الخصوصية • ولا يكفي الاعتناء بتنظيم البرامج الرسمية واعلانها في الصحف بل يجب السهر على حسن تطبيقها ، واننا لا نخشى برنامجاً ناقصاً

من بعض وجوهه ، يقوم على تطبيقه اساتذة قديرون يعلمون اهمية الواجب الملقى على عاتقهم ، بقدر ما نخشى برنامجاً حسن الاسلوب متين الوضع غزير المادة يقوم على تطبيقه معلمون جهلاء علاقتهم بالتربية والتعليم علاقتي باللغة المسمارية والاقوام السومرية

واول ما نلفت اليه انظار الحكومة في قضية ثقافة المعلمين هو ان يكون لها خطة مرسومة تهيء عليها الاساتذة غير تلك الطريق التي تمشي عليها اليوم . فلا نطلب اليها نقل برنامج فضفاض عن ارقى الامم الغربية ، فالذي يصلح لامة قد يمكن ان لا يصلح لغيرها ، وقيمة الانظمة والقوانين انما تكون بنسبة امكان تطبيقها والاستفادة منها ؛ لا بحسن سبكها فحسب . ولا بد من مراعاة روح الامة حينما ندرس حاجاتها ؛ لا سيما في قضية التعليم . فالمعارف العامة مثل سائر مصالح الدولة ، بل قبل سائر مصالح الدولة تتطلب درساً وتمحيصاً . وتأليف لجنة لهذه الغاية لا يكون بالشيء الكثير ، وعلى كل اذا ما تمت عزيمتها على تحقيق شي من ذلك فاننا نتمنى عليها الابتعاد عن البرامج المستفيضة ذات المواد الكثيرة التي تتطلب من الذين نهيؤهم لمهنة التعليم جهوداً كبيرة لقواهم الحافظة لان الركون الى الحافظة وحدها لخزن العلوم في الصدور لا يجدي اصحابها نفعاً جزيلا . والا وقعنا في المساويء التي يشكو منها

علماء الامم اللاتينية ، وهم ينادون بالويل والثبور من كثرة المواد العلمية التي تتطلبها براجهم من الاساتذة ، وحفظ العلوم وحده لا يكفي لاعداد الرجال . فيجب ايضاً ان تنظر بعين الاعتبار الى الناحية التربيوية تلك الناحية التي اشار اليها احد رؤساء اللجان الفاحصة في فرنسا، بما معناه : اننا ذعرنا من رؤية الجهود التي ينهك بها ، هؤلاء الذين يهيئون انفسهم لمهنة التعليم ، قواهم الحافظة . ونعتقد ان الحافظة هي اداة عجيبة لاتقان العمل ، لكنها اداة يجب على الاستاذ ان يسخرها لانماء سجاياه الرئيسية التي هي روح النقد وقوة التميز والمنطق السليم والمنهاج القويم والفطنة في القول والعمل، والفراسة التي تنفذ الى اعماق الامور والالهام السامي وسعة الصدر والبساطة والوضوح في التعبير (١) ...

وبالجملة فنحن بحاجة الى معلمين يكونون على شيء من الاخلاق والعلم يحسنون تربية ابنائنا تربية استقلالية حقة تؤهلهم للحياة العاملة التي تنهض بهذا الوطن المنكود الحظ من عثرته

---

(١) رواه غوستاف لوبون في كتابة روح التربية

لزوم تأسيس دار للمعلمين

اما بعد ! فقد اطلع القاريء ، في هذا البحث الموجز ، على تقصير المسؤولين عن ادارة هذه الامة ، بواجب الاهتمام بتربية الجمهور وتثقيفه ، ولمس لمس الراح ؛ مصدر الوباء الوخيم ، في القواعد التهذيبية الشوهاء ، التي يسير عليها معظم الاساتيذ في تربية التلاميذ ، فجهل المعلمين اذاً هو الداء ؟ وتأهيل المعلمين ، للقيام بواجبات تلك المهنة المقدسة هو الدواء . والنتيجة العملية التي يسوقنا اليها هذا البحث تكون في حسن انتقاء هؤلاء الاساتذة الذين يعدون ابناءنا للحياة الحرة . فلن يكون محرروهم من شتى القيود ، هؤلاء العبيد، ولن يصلح تعليمنا الوطني الا باستبدال تلك المناهج وهؤلاء الاشخاص بمناهج جديدة واشخاص جدد ؛ مزودين بشيء من الثقافة الصحيحة ومتصفين باخلاق حميدة فالواجب الانساني ، فضلا عن الواجب الوطني يقضي علينا بذلك لان قضية التهذيب هي قضية انسانية عامة قبل ان تكون قضية وطنية بحته. وهنا يتجلي لنا الواجب الاساسي الذى يحتم على من بيدهم الحل والعقد التقيد به ونلخصه في نقطتين :

الاولى هي انشاء دار للمعلمين . فيجد فيها المهذبون ما لاغنى لهم عنه من العلوم التي تحرر عقولهم ، وتهذب نفوسهم ؛ وتؤهلهم للقيام بهذا الواجب المقدس حق قيام . وبهذا فقط نستطيع اجتناب الفواجع المؤلمة التي تنال من اخلاق ابنائنا ، فواجع اهون ما فيها جعل المدارس الاهلية والرسمية حظائر لترويض الناشئين فيها على الاستعباد

والثانية هي اقصاء المعلمين الجهلاء عن مصلحة المعارف ؛ والوقوف في وجه تعيين هؤلاء الطغاة الغشم ، الذين جعلوا من العصا والصفع والشتم ، « قواعد مثلى » للادب والعلم ... اي ابعاد الذئاب المفترسة عن حظيرة الخراف الودعاء

❀❀❀

ولما كان جهل المعلمين وباء شاملا البلاد اللبنانية السورية جمعاء ، اقتضى توحيد المساعي لمكافحته . فعلى القابضين على نواصي الاحكام في حكومات الساحل والداخل ، الشمال والجنوب ، ان يعيروا هذه القضية الاهمية التي تستحقها ، لا سيما ان خطر هذا الوباء الوخيم يهدد سلامتها سواء .

وهذا ما يجعلنا نميل الى اعتبار مسألة التربية والتعليم « من المصالح المشتركة » فننادي الحكومات المختلفة ، باسم حقوق الناشئين بالثقافة

والتهذيب الى توحيد المساعي لتأسيس دار المعلمين ، واحدة الجميع . فيؤمها الذين توءهلهم لهذه المهنة من بيروت ودمشق وحلب واللاذقية واسكندرونه ودير الزور والسويداء ، وتشترك حكوماتهم بتسديد نفقاتهم بنسبة عادلة . وفي ذلك ما فيه من اقتصاد في النفقات . وبلوغ الغاية التي ينشدها الجميع

واننا نعتقد اعتقاداً راسخاً . ان نداءنا لن يذهب مع الريح ، بل سيجد لدى رؤساء المعارف العامة في البلاد ، آذانا صاغية ؛ عسى ان نسمع في القريب العاجل خبر اجتماعهم لدرس هذا الموضوع الحيوي ، والسعي لتطبيقه ، وانهم انشاء الله لفاعلون . فيكونوا بذلك قد حققوا للبلاد خدمة يشكرون عليها الشكر الجزيل



مباحث الرسالة

صحيفة

صحيفة

تطلب هذه الرسالة

من مؤلفها وعنوانه كما يلي :

ابو زهير الاندلسي — المطبعة الوطنية : بيروت

ومن

المكتبة الاهلية

شارع البوسطه القديمة — بيروت

ومكتبة سنو

شارع باب ادريس — بيروت

ومكتبة المطبعة الاميركية

سوق الجميل — بيروت

= ومن سائر المكاتب الشهيرة =

ثمنها ١٥ قرشاً سوريا

4846 -

- 5!P